د. محمّد عمارة

مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية

مكتبة الشروق الدولية

مستقبلنا بين

التجديد الإسلامى.. والحداثة الغربية

الطبعـــة الأولى

١٤٢٣هـ ـــ ٢٠٠٣م



ش الفتح ـ أبراج عثمان ـ أمام المريلاند ـ روكسي ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٢٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

د. محمد عمارة

مستقبلنا

بين التجديد الإسلامى والحداثة الغربية



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فى لقاء مع عدد من المثقفين الأندونيسيين ـ ذوى التوجهات الإسلامية ـ وأثناء استعراض واقع الفكر الإسلامى المعاصر.. حدثتهم عن تمايز تيارات الفكر فى عالم الإسلام، وتوزّعها ـ على وجه الإجمال ـ إلى:

أولاً: تيار الجمود والتقليد لتراثنا الفكرى، وعلى الأخص منه تراث عصر التراجع الحضارى لأمتنا وحضارتنا.. ذلك التيار الذى ينظر، فقط، إلى الخلف!.. ويقف عند ظواهر النصوص، مغفلاً المقاصد التى تغياها الشارع من وراء هذه النصوص.. بل ويتخير من النصوص «النصوص الوسيطة»، بدلاً من «النصوص الأولى»، المقدسة والمعصومة ـ غافلين عن معنى «النص» فى علم أصول الفقه، وهو الذى لا ينطبق على كل «عبارة»، وإنما يقتصر على ما هو قطعى الثبوت وقطعى الدلالة، الذى لا مجال فيه لأى تأويل.

ولذلك كله، فإن هذا التيار ـ تيار الجمود والتقليد ـ يخاصم النظر العقلى فى حكم وعلل الأحكام التى جاءت بها النصوص.. مع إهمال فقه الواقع المتغير، والذى يتطلب ـ فى الفروع ـ أحكامًا جديدة، تواكب المتغيرات، وتستجيب للمصالح الشرعية المعتبرة التى تفرزها هذه المتغيرات.

ثانيًا: تيار التغريب والحداثة الغربية، ذلك الذى انطلق وينطلق من المرجعية الفلسفية للحضارة الغربية، معتمداً مناهج النظر «الوضعية ـ العلمانية» ـ وأحيانا المادية ـ التى تعاملت بها تلك الحضارة مع الدين وحقائقه وعوالمه وعلومه ومعارفه، فنظرت إلى الدين ومواريثه باعتبارها «فكراً» غير علمى، عبّر عن مرحلة من مراحل تطور «العقل الإنسانى»، هى مرحلة «طفولة» هذا العقل.. التى تلتها ونسختها «مرحلة الميتافيزيقا».. والتى تلتها ـ هى الأخرى ـ ونسختها «المرحلة

الوضعيـة»، التى جعلت الكون المادى والواقع الدنيوى فـقط ـ وليس الغيب ـ هو مصدر المعرفة الحـقة والعلم الحقيقى، كما جعلت «العـقل» و«التجربة» وحدهما ـ دون «النقل» و«الوجـدان» ـ الطرق المعتـمدة والمأمـونة لتحـصيل هذه المعـرفة.. فكانت «القطيعة المعرفية» مع الموروث، وبالذات الموروث الدينى، تلك التى تميزت بها ثقافـة الحداثة الغربية، والحداثة الـثقافية، عندمـا عزلت علمانيتهـا السماء عن الأرض، بدعـوى أن «العـالم مكتف بذاتـه»، وأن «الإنسـان مكتف بذاته»، وأن تدبيـر هذه الحياة الدنيا إنمـا يتم بالأسبـاب المادية والملكات الإنسـانية المودعـة فى ظواهرها وعوالمها، دونما حاجة إلى مدبر مفـارق ومتعال من وراء الطبيعة.. حتى لقد جعلت هذه الثقافة الحـداثية ـ التى تمحورت حول الإنسان، دون الله ـ جعلت من هذا الإنسان «كـائنًا طبيعـيًا»، و«سيـدًا للكون»، وليس ذلك المخلوق الربانى، الذى نفخ الله فيـه من روحه، وجعله خليـفة له.. أى سـيدًا فى الكون، وليس سيد الكون، وإنما عبدًا لسيد الكون.

ذلك هو تيار التـغريب، والحداثة الغـربية، الذى نظر أهله، فـقط، إلى الغرب فقط، فـقلدوه وجمدوا على مقـولات ثقافته وفلسـفاته.. كما نظر أهـل الجمود التراثـى، فقط، إلى الماضى، فـقلدوا مقـولات سلف عصـر تراجعنا الحـضارى، وجمدوا عند ظواهر نصوصها.

وثالثًا: تيار الإحياء والتجديد.. الإحياء لأصول الإسـلام وثوابته، بالعودة إلى المنابع الجـوهرية والنقية لـهذا الدين الحنيف، والنظر فـيها بـعقل معـاصر، يفـقه أحكامها، كما يفقه الواقع الذى يعيش فـيه، عاقدًا القران بين «فقه الواقع» و«فقه الأحكام» ليـصل إلى التـجديد فى الفـروع ـ أى الفـقه، الذى هو علم الفـروع ـ مبدعًـا الأحكام الفقهـية الجديدة التى تستـجيب للمصالح الشـرعية المعتـبرة، التى طرحتها وتطرحها مستجدات الواقع الجديد والمعيش.

ففى هذا التـيار ـ الإحيائى والتجـديدى ـ تتوازن «الثوابت» ـ الدائمـة الثبات، والضامنة دوام إسلامية النسق الفكرى على امـتداد الزمان والمكان ـ مع «التجديد» فى الفروع التى تطرحها متغيرات الواقع ومـستجداته.. الأمر الذى ينفى القطيعة ـ قطيعة «الجديد والتجديد» ـ مع «الثوابت والثبات».. كما ينفى «الجمود والتقليد»،

الذى يحدث فراغًا فكريًا، سرعان ما تملؤه الفكرية الحداثية الغربية، التى مثلت ـ منذ نشأتها فى عصر النهضة الأوروبية ـ قطيعة معرفية مع الموروث الدينى على وجه الخصوص.

* * *

لقد دار حديثى مع المثقفين الأندونيسيين، حول هذا التشخيص لتيارات الفكر فى عالم الإسلام..

وأحسست أن كلامى كان واضحًا.. وكان مقبولاً.. اللهم إلا عند ذكر مصطلح «التجديد» أو الإشارة إلى نماذج العلماء المجددين، فإن النظرات والإيماءات كانت تشى بأن هناك لبسًا يحول دون وضوح المقصود من وراء هذا «التجديد».

وأخيرًا، أدركت أن هناك خلطًا فى المفاهيم والمضامين ـ مفاهيم ومضامين المصطلحات ـ حدث لأن عددًا من «الحداثيين.. المتغربين» عمدوا إلى «تسويق بضاعتهم» الوضعية العلمانية ـ وأحيانًا المادية ـ تحت عنوان وراية ومصطلح «التجديد» حتى أصبح هذا المصطلح «سيء السمعة»! عند هؤلاء المثقفين الأندونيسيين. الأمر الذى أوجب ويستوجب تحديد مفاهيم ومضامين المصطلحات.. ليتميز «التجديد» كسبيل إسلامى أصيل فى التطور بعالم الأفكار.. عن «الحداثة» بمعناها الغربى ـ تلك التى تعنى القطيعة المعرفية مع ثوابت الدين وأصوله.. فهى نسخ للدين ـ بالجحود والإنكار.. أو بالتأويل الذى يفرغه من محتواه ـ بينما يعنى «التجديد»: البعث والإحياء لثوابت الدين وأصوله، مع التطور فى فقه الفروع، مواكبة لمستجدات الواقع المعيش، وحفاظًا ـ فى ذات الوقت ـ على صلاح وصلاحية الثوابت والأصول الدينية لكل زمان ومكان.. فهما «الحداثة» و«التجديد» نقيضان فى نظرة كل منهما إلى ثوابت الدين وأصوله.. وأيضًا فى النتائج التى يثمرها كل منهما إزاء الدين.

* * *

إن للإسلام فلسفته الفريدة فى النظر إلى الكون.. وإلى مكانة الإنسان فى هذا الوجود.. وإلى نطاق حرية الإنسان فى هذه الحياة.. وهى فلسفة لا وجه للتوفيق

بينها وبين الفلسفة الوضعية التى قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة، وثقافتها الحداثية المعاصرة.

فالإنسان - فى الرؤية الإسلامية - مخلوق لله، سبحانه وتعالى.. وفى هذا قد تتفق الرؤية الإسلامية مع الوضعية الغربية المؤمنة.. لكنها تعود فتفترق عنها عندما تقرر أن الله، سبحانه وتعالى، ليس مجرد خالق فقط، وإنما هو الخالق والراعى والهادى والمدبر لهذا الوجود، وهذا الإنسان.

فالله، فى التراث الأرسطى الإغريقى، هو مجرد خالق للعالم والوجود، خلقه ثم دفعه للحركة فتحرك، ولا يزال يتحرك بواسطة الأسباب الذاتية المودعة فى عوالمه وقواه، دونما حاجة إلى تدبير إلهى أو رعاية ربانية، أو شريعة دينية يأتى بها الوحى، من وراء الطبيعة والوجود المادى، إلى الأنبياء والمرسلين.

وهذه الرؤية الأرسطية هى ذاتها الرؤية الوثنية الجاهلية.. فلقد كان الوثنيون - فى الجاهلية - يؤمنون بالله خالقًا لهذا الوجود ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]..

فهم لا ينكرون الخلق والخالق لهذا الوجود.. وإنما استحقوا أوصاف ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم وقفوا بنطاق عمل الذات الإلهية عند «الخلق» فقط، وجعلوا «التدبير» للأصنام والأوثان والوسائط التى أشركوها مع الله، يلجأون إليها إذا أرادوا الحرب أو السلم.. السفر أو القرار.. الفعل أو الترك.. الإقدام أو الإحجام.. الزواج أو الطلاق.. إلى غير ذلك من التدابير لشئون الحياة.

وتلك بعينها، هى الفلسفة الوضعية الغربية، عندما تؤمن بالخلق والخالق.. فهى - بالعلمانية - قد قررت أن العالم مكتف بذاته، وأن الإنسان مكتف بذاته.. فالعالم تدبره الأسباب الذاتية والمادية المودعة فى عوالمه ومجتمعاته وقواه

وظواهره.. والإنسان هو سيد الكون.. ولا سلطان على العقل الإنسانى إلا للعقل الإنسانى وحده.. و«العقد الاجتماعى» البشرى يقرره الاختيار الإنسانى وحده، والحرية الإنسانية التى لا سقف عليها ولا إطار يحكمها من وحى أو شريعة تأتى بها السماء.

وفى مقابل هذه الرؤية الوضعية ـ التى هى بعث وإحياء للتصور الأرسطى، وللتصورات الوثنية الجاهلية ـ تأتى فرادة الرؤية الإسلامية، التى لا تجعل الله مجرد خالق.. وإنما هو الخالق والراعى والهادى والمدبر لكل عوالم المخلوقات، والتى ترى الإنسان خليفة لله، خلقه الله ونفخ فيه من روحه، واستخلفه لعمارة الأرض، وسخر له كل ما فى الوجود، وحباه القدرة والحرية والاختيار والاستطاعة والتمكين.. لكن فى حدود ثوابت عقد وعهد الاستخلاف ـ عقد وعهد الإنابة والتوكيل ـ فهذا الإنسان ـ وفق عبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ «هو عبدٌ لله وحده، وسيد لكل شىء بعده»! هو خليفة ونائب ووكيل لسيد الكون، سبحانه وتعالى، وليس هو سيد الكون.. وهو الحامل لأمانة عمران هذه الأرض.. وهو فى تدبير هذا العمران، مصدر السلطة والسلطان، لكن فى إطار الحلال والحرام الدينى، أى فى إطار الثوابت الدينية ـ عقيدة وشريعة وقيما ـ فهذا الإنسان ـ فى هذه الرؤية الإسلامية ـ ليس ذلك «الحقير.. الفانى.. المهمش.. المجبر»، الذى لا حول له ولا طول.. وأيضا، ليس هو سيد الكون، المكتفى بذاته عن توجيهات الدين، وتدبير السماء، ووحى الله، سبحانه وتعالى.. وإنما هو ـ بهذه الرؤية الإسلامية ـ الرؤية الفلسفية الوسطية ـ: سلطان الأرض، المحكومة سلطاته بسلطان السماء؛ لأنه خليفة فى الكون، وليس سيد هذا الكون.. لأن سيد الكون ـ الله، سبحانه وتعالى ـ ليس مجرد خالق، وإنما هو الخالق والمدبر لكل عوالم المخلوقات.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

[طه: ٤٩، ٥٠].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾ [يونس: ٣].

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم﴾ [العنكبوت: ٦٢].

فالرؤية «الوضعية ـ العلمانية» الغربية، التى تريد تحرير الاجتماع الإنسانى من ثوابت التدبير للشريعة الإلهية، فتقول ـ مثلاً ـ: «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين» أو تحرر الوطن من الدين ومن العبودية لله، ومن الالتزام بحاكمية الشريعة الإلهية، بدعوى «أن الدين لله، والوطن للجميع». هذه الرؤية التى تعزل السماء عن الأرض، وتحصر الفعل الإلهى فى نطاق دون نطاق، هى التعبير الحديث والمعاصر عن الرؤية الوثنية الجاهلية، التى سفهها القرآن الكريم وسفه قسمتها هذه عندما قال: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ [الأنعام: ١٣٦].

بينما الرؤية الإسلامية تجعل الدين لله.. أى خالصًا له، دون طغيان الطواغيت والعبودية لهم.. وتجعل الوطن أيضًا لله، سخره الله بما فيه من إمكانات للإنسان ـ الأمة.. المواطنين ـ المستخلفين فى عمرانه وتدبيره وفق الشريعة الإلهية ـ التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف ـ فالكل ـ الوطن والمواطنون ـ فى الحقيقة وواقع الأمر ـ لله، سبحانه وتعالى، وفق المنطق والمبدأ القرآنى ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴿١٦٢﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

تلك هى المنطلقات المختلفة لكل من الرؤية الإسلامية المؤمنة للكون.. ولمكانة الإنسان فى هذا الوجود.. ولنطاق الحرية الإنسانية فى هذه الحياة ـ وهى الرؤية المؤسسة على فلسفة الخلافة والاستخلاف ـ. وللرؤية «الوضعية الغربية» حتى المؤمنة منها ـ والتى مثلت وتمثل الجذر الفلسفى الذى يفتح الباب أمام الحداثة الغربية لإنكار الثوابت الدينية، ونسخها، وإقامة القطيعة المعرفية معها، بشكل مباشر وجاد، أو بالتأويل الذى يفرغ الدين ومصطلحاته من محتواه.. بينما تحول الرؤية الإسلامية دون فتح هذا الباب، مكتفية ـ لتلبية احتياجات التطور،

ومتغيرات الواقع، ومستجدات الزمان والمكان والمصالح ـ بطريق وآليات «التجديد»، الذى يحيى الثوابت، ويعيد الحيوية إلى الأصول، مع التغيير والتجديد والتطوير والإبداع فى الفروع التى تواكب مستجدات الواقع والمصالح والحياة.

فإذا كانت الحداثة الغربية ـ انطلاقًا من الفلسفة الوضعية، التى حررت الدنيا من الدين ـ قد أقامت قطيعة معرفية مع الموروث الدينى.

وإذا كان الجمود والتقليد ـ فى فكرنا الإسلامى ـ ينكر التجديد، أو يستريب فيه، بدعوى أن الإسلام قد اكتمل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] والمكتمل ـ بنظرهم ـ لا يحتاج إلى تجديد.. فإن تحديد المفاهيم.. وتحرير مضامين المصطلحات.. هو الكفيل بتمييز «التجديد» عن «الحداثة».. وبنفى التناقض الموهوم بين «التجديد» وبين «اكتمال الدين».

***

التجديد هو التحقيق لاكتمال الدين

إن «اكتمال الدين».. و«تجديده».. وبتعبير آخر «السلفية».. و«التجديد».. مصطلحان يرمزان ـ فى عرف بعض الباحثين ـ إلى نسقين متقابلين، بل ومتناقضين، فى الرؤية والمنهج والتفكير والثمرات.. والذين ينظرون إلى فكرنا الإسلامى بمناهج الفكر الغربى لا يتصورون علاقة وفاق أو اتفاق أو تكامل بين «اكتمال الدين» وبين «تجديده» أو بين «السلفية» وبين «التجديد».. ففى الفكر الغربى، كانت «السلفية» ـ الأرثوذكسية ـ هى الوقوف عند الأصول فقط ـ وهى أصول لا علمية ولا عقلانية ـ حتى لقد سميت هذه «السلفية» هناك بـ «الأصولية» بمعناها الغربى، أى الجمود المنافى للتقدم وللعقل وللعلم ولمواكبة مستجدات الزمان والمكان.. كما كانت الحداثة هى رد الفعل الغربى للسلفية والأصولية الغربية، التى مثلت ثورة أتت على هذه الأصولية الأرثوذكسية من القواعد والأساس.

لكن منهجنا الإسلامى، بوسطيته الجامعة، لم يعرف ولن يعرف هذه الثنائية الانشطارية التى تقيم التقابل والتضاد بين «اكتمال الدين.. والسلفية» وبين «الاجتهاد فيه.. والتجديد له».

إننا نتلو فى آيات القرآن الكريم قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ونقرأ فى السنة النبوية الشريفة، قول رسول الله ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود.. فلا نشعر ـ بالمنهج الإسلامى.. ووسطيته الجامعة ـ أن هناك تناقضًا بين اكتمال الدين، بتمام الوحى وختام النبوة والرسالة، وبين التجديد الدائم أبدًا لهذا الدين، الذى اكتمل بختم الوحى وتمام القرآن الكريم.

ذلك أن الدين: عقيدة وشريعة.. والعقيدة فيه هي: الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر.. والشريعة فيه هي: كل ما ينهجه المسلم ويسلكه ويقيمه ـ من عبادات.. وقيم.. ومعاملات ـ كي يعتقد هذه العقيدة ويتدين بها.. ولكل من العقيدة والشريعة أصول وقواعد وأركان، وهي جميعها قد اكتملت بتمام الوحي الذي اكتمل به الدين، وبإقامة الرسول ﷺ، وصحابته، رضي الله عنهم، لهذا الدين.

لكن الإنسان المسلم، بحكم خلافته لله، سبحانه وتعالى، في عمارة الأرض، وسياسة المجتمع، وتنمية العمران، لا بد له ـ وهو ينجز مهمة خلافته هذه، ويؤدي أماناتها ـ من إقامة أبنية أخرى يبدعها هو فوق هذه الأصول والقواعد والأركان.. فالإسلام ـ مثلاً ـ قد بني على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ـ فهذه الأركان الخمسة هي القواعد التي بني عليها الإسلام، وليست هي كل بناء الإسلام، وإنما هي القواعد التي تعلوها أبنية الفروع.. وهذه الأبنية ـ الفروع للأصول وخاصة في المعاملات والتي تتغير وتتجدد وتتطور تبعا للمصلحة ووفقا لمقتضيات الزمان والمكان ـ إذا كانت متسقة مع مقاصد الأصول وغايات القواعد وحدود الأركان ـ فهي «تجديد» في نطاق وآفاق وروح وتأثيرات هذه الأصول والقواعد والأركان.. فالأصول الثوابت قد اكتملت باكتمال الدين، بينما آفاقها وآثارها والفروع الباسقة منها دائمة النمو والتغير والتطور، شاهدة على دوام التجديد، وعلى العلاقة بين هذا التجديد وبين الثوابت المكتملة من الأصول والقواعد والأركان.

ولوضوح هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامي، كان اتفاق مذاهب الفكر الإسلامي على امتناع الاجتهاد في الأصول، ففيها وعليها قامت وحدة الأمة ـ التي هي فريضة دينية.. وأصل ديني ـ منذ اكتمال الدين بختم الرسالة.. وكان اتفاق هذه المذاهب، كذلك، على أن الاجتهاد الإسلامي مجاله «الفروع».. فهو، عندئذ، يمد ـ بالتجديد ـ فروع الأصول إلى المستجدات من الوقائع والمصالح..

ويُحلُّ أحكامًا جديدة ـ أى فروعًا جديدة ـ محل أحكام تجاوزها الواقع الذى تغيّر والعرف الذى تطور والعادات التى تبدلت والمصالح التى استجدت، عندما تكون هذه الأحكام ذات علل غائية، تدور معها وجودًا وعدمًا.. بل إن هذا الاجتهاد والتجديد إنما ينهض بدوره الدائم فى الكشف عن جوهر الأصول والقواعد والأركان وتجليتها إذا علاها غبار الابتداع فطمس معالمها بالزيادة أو الانتقاص أو التحريف أو فاسد التأويل.. ففى الأصول والقواعد، أيضًا، تجديد ـ بهذا المعنى ـ وهو الذى جعل حديث رسول الله ﷺ يتحدث عن «تجديد الدين»، وليس فقط تجديد «فكر المتدينين بالدين».. وهو الذى جعل رسول الله ﷺ، ينبه على أن للإيمان ـ وهو جوهر الدين ـ تجديدًا.. وذلك عندما قال لصحابته وأمته:

«جددوا إيمانكم».

ـ قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟.

ـ قال: «أكثروا من قول لا إله إلا الله» رواه الإمام أحمد.

لأن كلمة التوحيد هى الثورة التى تكشف عن نقاء هذا التوحيد، عندما تزيل عن أصوله وجوهره غبار وآثار العبودية والخضوع للطواغيت.. وبذلك يتجدد الإيمان، ويعود التوحيد إلى مضاء التحرير للإنسان من عبودية هذه الطواغيت.. فيكون إفراد الله، سبحانه وتعالى، بالعبودية هو قمة التحرير لملكات وطاقات الإنسان!.

فليس «التجديد»، إذن، نقيضًا لـ «اكتمال الدين وثباته»، بل إنه السبيل لامتداد تأثيرات الدين الكامل وثوابته وأصوله إلى الميادين الجديدة، والأمور المستحدثة، والضمان لبقاء «الأصول» صالحة دائمة لكل زمان ومكان.. أى أنه هو الضمان لبقاء الرسالة الخاتمة خالدة، ولولا مده الفروع الجديدة إلى الجديد من المحدثات، وإقامته الخيوط الجديدة بين الأصول الثابتة وبين الجديد الذى يطرحه تطور الحياة، ولولا تجديده الدائم الذى يجلو الوجه الحقيقى النقى لأصول الدين وثوابته.. لولا دور «التجديد» هذا فى حياة الإسلام ومسيرته لنُسخت وطُمست هذه الأصول، إما بتجاوز الحياة الممتدة لظل الفروع الأولى والقديمة، فيعرى هذا الامتداد الجديد من ظلال الإسلام.. أو بتشويه البدع، عندما تتراكم، لجوهر هذه الأصول.

إن الله، سبحانه وتعالى، لما تعهد بحفظ القرآن الكريم وصيانته عن التحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] يسّر للمسلمين أسباب ذلك، فكان جمعه.. وتدوينه.. وخدمته بعلوم القرآن.. وكذلك الحال مع الدين الخاتم والرسالة العامة، التي عنى ختم الرسالات السماوية بها إرادة الله دوام بقائها وعطائها إلى أن يعرض البشر على بارئهم يوم الدين.. فكان السبيل إلى دوام بقاء هذا الدين واستمرار عطائه وصلاحه لكل زمان ومكان هو إعمال سنة التجديد للدين والفكر الديني.. وهي «سنة» لا تبديل لها ولا تحويل، أي أنها قانون من القوانين الفاعلة والعاملة دائمًا وأبدًا في النسق الفكري الإسلامي، وليست مجرد «مباح»، أو مجرد حق من حقوق العقل الإسلامي!.

هكذا جمعت الوسطية الإسلامية، وتجمع بين «اكتمال الدين» وبين «تجديده».. وربطت بين «السلفية» بمعنى العودة في الدين إلى أصوله ومنابعه الجوهرية والنقية ـ وبين «التجديد» في الفروع وفي المتغيرات.

ونحن إذا نظرنا إلى ذاتنا الحضارية، بمنهجنا الإسلامي، فسنجد أن في «سلفيتنا» هذه اجتهادًا يميز بين الجوهر ـ جوهر الوضع الإلهي للدين ـ وبين الإضافات والنواقص والبدع التي طرأت وعدت على جوهره وأصوله، وسنجد أن في «اجتهادنا» ـ الذي هو استنباط الأحكام الجديدة للواقع الجديد ـ سنجد أن في هذا الاجتهاد: سلفية، تستحضر الأصول والمبادئ والمقاصد، لنرى الواقع الجديد في ضوئها، ونستخرج له منها الأحكام الجديدة.. ففي السلفية تجديد.. وفي التجديد سلفية.. وكل المجددين ـ في مسيرتنا الحضارية ـ كانوا سلفيين في الأصول، ومجددين في الفروع.

إن شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م] الذي هو طليعة من يرد على الذهن والخاطر إذا ذكر مصطلح «السلفية»، لم يكن مجرد مجتهد، وإنما كان واحدًا من أبرز الذين سعوا إلى إبداع مشروع فكري لتجديد الدين الإسلامي كي تتجدد به دنيا المسلمين[1].. وإن أبرز تلاميذ ابن تيمية، وهو العلامة ابن القيم [٦٩١ ـ ٧٥١هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م]، هو الذي عقد ـ في كتابه [إعلام الموقعين] فصلا نفيسا جعل عنوانه «**فصل في تغير الفتوى واختلافها**

بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد».. ذلك «لأن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها..»(٢).

فالثابت فى الشريعة هو فلسفة التشريع، والقواعد والنظريات، والأحكام التى قننت للثوابت ـ من مثل القيم والحدود ـ أما التفاصيل والفروع والجزئيات ـ التى هى موضوع الفقه ـ فإن باب الاجتهاد والتجديد مفتوح فيها أمام العقل الفقهى، كى يبدع الجديد من الأحكام، التى تواكب متغيرات الواقع ومستجدات الزمان والمكان والأحوال والنيات والعادات.. كما قال ويقول الأئمة «السلفيون ـ المجددون».

هكذا تحددت.. وتحررت.. ووضحت المفاهيم.. مفاهيم «التجديد» و«الحداثة».. وانتفت شبهات التناقض بين اكتمال الدين وبين تجديده.. وأيضًا بين سلفية العودة إلى الأصول والثوابت وبين التجديد فى الفتاوى والأحكام.

* * *

• الهوامش

(١) انظر: أبو الأعلى المودودى [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص٧٣ ـ ٧٩ طبعة بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م.

(٢) [إعلام الموقعين] جـ٣ ص٣ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

* * *

من معالم المشروع الحضارى لمدرسة الإحياء والتجديد

وإذا كانت أبرز وأعمق وأوسع مدارس الإحياء والتجديد فى النهضة الإسلامية الحديثة هى تلك المدرسة التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م].. والتى كان الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] العقل الذى هندس معالم مشروعها التجديدى فى العديد من الميادين.. فلقد تبلور فى تراث هذه المدرسة ما يمكن أن نسميه معالم أساسية لمشروع نهضوى إسلامى، هو وسط متميز عن مقولات أهل الجمود والتقليد.. وعن مقولات أهل الحداثة والتغريب.. هو مشروع أصولى، نابع من الأصول الإسلامية، وحديث ومعاصر، عندما رأى هذه الأصول بعقل معاصر، وفى ضوء مستجدات الواقع العصرى المعيش.. وهذا المشروع الحضارى «الأصولى ـ التجديدى»، الذى حاولت به وفيه هذه المدرسة تجديد الدين الإسلامى لتتجدد به دنيا المسلمين، يمكن أن نتخير منه أصولاً عشرة، كمعالم للنهضة والإصلاح.. وهى:

١ ـ نقد ورفض الجمود والتقليد:

سواء أكان هذا التقليد تقليداً للسلف، وجموداً على تراثهم.. لأن «سلفية الجمود على ظواهر النصوص ـ كما يقول الإمام محمد عبده ـ: «أضيق عطنًا، وأحرج صدراً من المقلدين، وهى وإن أنكرت كثيراً من البدع، ونَحّت عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يُفْهَم من لفظ الوارد، والتقيد به، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها مُنحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء»[١].

ونفس الرفض والنقد ـ بل أكثر ـ لتقليد الغرب، وللجمود على الثقافة الحداثية للتغريب. . «ذلك لأن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ـ [كما يقول الأفغاني] ـ ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلوتها. . والتمدن الغربي هو، في الحقيقة، تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني. . ولقد علّمتنا التجارب، أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها. . وطلائع الجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم. . فتقليد الأجانب يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بهم، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام، التي من شأنها رفع راية السلطة والغَلَب، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي»[٢].

٢ ـ وثاني هذه الأصول هو التجديد:

الذي يؤدي إلى:

- تحرير الفكر من قيد التقليد.
- وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف.
- والرجوع في كسب معارف الدين إلى ينابيعها الأولى.
- واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشري.
- وإصلاح أساليب اللغة العربية.
- والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة..

وهو تجديد ـ كما يقول الإمام محمد عبده ـ «خالفتُ فيه وفي الدعوة إليه رأي طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ـ [من أهل الجمود والتقليد] ـ وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم ـ [من أهل الحداثة والتغريب] ـ»[٣].

٣ ـ وثالث هذه الأصول هو الإصلاح بالإسلام:

وليس بالنموذج الحضاري الغربي الوضعي والعلماني، الذي اقتحم عالم الإسلام في ركاب الغزوة الأوروبية الحديثة. . «لأن الدين [كما يقول الأفغاني] هو

قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. وإنا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه.. ولقد كان الخلل والهبوط الذى اعترى حياتنا، من طرح أصول هذا الدين، ونبذها ظهريًا.. والعلاج إنما يكون برجوع الأمة إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته.. ولا سبيل إلى اليأس والقنوط، فإن جراثيم الدين متأصلة فى النفوس.. والقلوب مطمئنة إليه، وفى زواياها نور خفىّ من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نَفَسها فى جميع الأرواح لأقرب وقت.. فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نُصْب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا منتهى الكمال الإنسانى. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا.. ولن يزيدها إلا نحسًا، ولن يكسبها إلا تعسًا»[4].

وبعبارة الإمام محمد عبده: «لقد أُشربت أنفس الأمة الانقياد إلى الدين، حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التى أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه.. وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التى يسمونها أدبية، من عهد محمد على إلى اليوم، فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادًا ـ وإن قيل إن لهم شيئًا من المعلومات ـ فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى نفوسهم.

إن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا..وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!»[5].

٤ ـ ورابع هذه الأصول هو الوسطية الإسلامية:

التى برئت من الغلو والإغراق فى المادية.. أو فى الروحانية.. وإذا كانت المدنية الأوروبية ـ كما يقول الإمام محمد عبده ـ هى «مدنية الملك والسلطان،

مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل فى شىء من ذلك.. فلقد ظهر الإسلام، لا روحيا مجردًا، ولا جسديًا جامدًا، بل إنسانيًا وسطًا بين ذلك، آخذًا من كلا القبيلين بنصيب، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره، ولذلك سمي نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدّوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية»[٦].

٥ـ وخامس هذه الأصول هو العقلانية المؤمنة:

تلك التى جمعت وتجمع بين العقل والنقل.. بين الحكمة والشريعة.. فتقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل ـ وهو نسبى الإدراك ـ بالنقل ـ الذى هو العلم الإلهى الكلى والمطلق والمحيط ـ ذلك أن «العقل هو جوهر إنسانية الإنسان، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. وهو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله وعلمه وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة والعبادات»[٧].. والقرآن ـ وهو المعجز الخارق ـ دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، فهو معجزة عُرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها.. فتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس، على لسان نبى مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل.. والمرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن ربِّى على التسليم بغير عقلٍ، والعمل، ولو صالحًا، بغير فقه، فهو غير مؤمن؛ لأنه ليس المقصود من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يُذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه.. والعاقل لا يقلد عاقلاً مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلا دونه..»[٨].

ومع هذا التألق لمقام العقل.. فإن هناك أمورًا لا يستقل العقل بإدراكها، أو إدراك الحكمة من ورائها، ومن هنا كانت ضرورة استعانته بالوحى «فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة، اللهم إلا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال.. وإذا قدرنا العقل البشرى قدره، وجدنا غاية ما ينتهى إليه

كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى.. أما الوصول إلى كُنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته.. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجًا إلى معين يستعين به فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة..»(٩).

٦- وسادس هذه الأصول: الوعى بسنن الله الكونية:

تلك التى تحكم سائر عوالم المخلوقات، والتى تمثل قواعد علم الاجتماع الدينى، فى التقدم والتخلف.. فى النهوض والانحطاط.. فى الانتصارات والهزائم.. وفى التدافع بين الأمم والدعوات والحضارات.. وإن «إرشاد الله إيانا أن له فى خلقه سننا ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧] يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه.. والعلم بسنن الله، تعالى، من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها.. إن لله فى الأمم والأكوان سننًا لا تتبدل، وهى التى تسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة فى المجتمع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، ويبنى عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع فى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرر، أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه..»(١٠).

٧- وسابع هذه الأصول: أن الدولة- فى الإسلام:

«مدنية- إسلامية».. لا كهنوتية ولا علمانية:

فلقد أتى الإسلام بالمبادئ والمرجعية.. أما النظم والمؤسسات والآليات، فجميعها بشرية مدنية متطورة، وهى إسلامية بقدر ما تحقق أو تقترب من تحقيق المثال الإسلامى والمرجعية الإسلامية.. وإذا كانت الدولة الكهنوتية قد عرفت الحكم بالحق بالإلهى، فكانت الدولة فيها نائبة عن السماء - ولا وجود للأمة -.. وإذا

كانت الدولة العلمانية تحكم باسم الشعب ـ ولا وجود فيها لشريعة السماء ـ.. فإن الدولة الإسلامية فيها: حاكمية الشريعة.. والأمة مستخلفة لتحقيق حاكمية الشريعة.. والدولة مستخلفة فيها عن الأمة.. فهى نموذج فريد فى هذا الباب..

«وليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم. ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الفرنج «ثيوكراتيك» أى سلطان إلهى.. فأصل من أصول الإسلام قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها.. وكل سلطة تناولها القاضى، والمفتى، وشيخ الإسلام، هى سلطة مدنية، قدّرها الشرع الإسلامى، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد، أو عبادته لربه، أو ينازعه فى طريقة نظره.. ومع هذا.. فالإسلام دين وشرع.. لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده فى عمله..فكان الإسلام: كمالاً للشخص، وأُلفة فى البيت، ونظامًا للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه»[11].

٨ ـ والأصل الثامن من أصول هذا المشروع التجديدى هو الشورى:

أى مشاركة الأمة فى صنع قرارات دولتها ومجتمعها.. «فلابد من إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى، وذلك بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين.. والقوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من نفس الأمة.. وبذلك يشارك الأهالى بالحكم الدستورى الصحيح.. والأمة هى التى تُمَلِّكُ حاكمها على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى، وتتوِّجه على هذا القَسَم، وتعلنه له: يبقى التاج على رأسه ما بقى هو محافظًا أمينًا على صون الدستور، وأنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس!..»[12].

٩ ـ وتاسع هذه الأصول هو العدالة الاجتماعية:

التى تحقق التكافل الاجتماعى بين الأمة كلها «فالإخاء الذى عقده المصطفى ﷺ، بين المهاجرين والأنصار، كان أشرف عمل تجلى به قبول اشتراكية الإسلام

الوسطية ـ التى أشار إليها القرآن بأدلة كثيرة.. والمغايرة لاشتراكية الغرب، القائمة على التطرف وروح الانتقام من جور الحكام والأحكام ـ ذلك أن تنعم فريق من قوم، وشقاء فريق آخر، فى محيط واحد، وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت، مما لا يتم به نظام الاجتماع..»[13].

والله، سبحانه وتعالى، عندما أضاف مصطلح «المال» فى القرآن الكريم إلى ضمير «الفرد» فى سبع آيات، وإلى ضمير «الجمع» فى سبع وأربعين آية، أراد أن ينبه بذلك «على تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم..»[14].

١٠ ـ وعاشر هذه الأصول هو إنصاف المرأة:

لتشارك الرجل فى القيام بفرائض وتكاليف العمل العام ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ وبدون هذا الإنصاف لا قيام للأسرة، التى هى اللبنة الأولى والأساسية فى بناء الأمة.. «فالأمة تتكون من البيوت [العائلات]، فصلاحها صلاحها، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أُمّة.. والرجل والمرأة يتماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما يتماثلان فى الذات والشعور والعقل.. والآية القرآنية ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ هى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق، إلا أمراً واحداً عبّر عنه بقوله: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ [البقرة: ٢٢٨].. وهذا الأمر ـ القوامة ـ يوجب على المرأة شيئًا وعلى الرجل أشياء، ذلك أن الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولابد لكل اجتماع من رئيس، يرجع إلى رأيه فى الخلاف؛ كى لا تنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام.. والرئاسة هنا إرشاد ومراقبة وملاحظة، وليست قهراً ولا سلبًا للإرادة.. فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن.. وكلاهما بشر تام، له عقل يتفكر فى مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويُسر به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبداً يستذله ويستخدمه فى مصالحه، ولاسيما بعد عقد الزوجية والدخول فى الحياة المشتركة التى لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام

بحقوقه.. أما الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم، فإنهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم!..»[15].

* * *

تلك نماذج من معالم المشروع النهضوى، التى أثمرتها إبداعات الإحياء والتجديد. تلك التى جسدت منهاج التجديد الإسلامى فى: استصحاب الثوابت والقواعد والأصول.. وجددت فى فقه الواقع، فجاءت هذه المعالم إسلامية تماما.. وفى ذات الوقت مستجيبة لمتغيرات ومستجدات ومصالح الواقع المعيش.

* * *

● الهوامش

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص٣١٤. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص١٩٥ ـ ١٩٧ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص٣١٨.

(٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص١٣١، ١٧٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ١٦١، ١٩٧، ١٩٩.

(٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص١٠٩، ٢٣١.

(٦) المصدر السابق: جـ٣ ص٢٠٥، ٢٤٢.

(٧) المصدر السابق. جـ٥ ص٤٢٨، جـ٣ ص٢٩٨، ٣٢٥.

(٨) المصدر السابق. جـ٣ ص٣٥٦، ٣٥٧، ١٥١، ٢٧٩ ـ ٢٨١، جـ٤ ص٤١٤.

(٩) المصدر السابق: جـ٣ ص٤١٢، ٤٢٦، ٣٧٩، ٣٩٧.

(١٠) المصدر السابق. جـ٥ ص٩٤، ٩٥، جـ٣ ص٢٨٤.

(١١) المصدر السابق. جـ٣ ص٢٣٣، ٢٨٨، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦، جـ٤ ص٤١٢.

(١٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص٤٧٣، ٤٧٧، ٤٧٩.

(١٣) المصدر السابق ص ٤١٤ ـ ٤١٧.

(١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٥ ص١٩٤.

(١٥) المصدر السابق. جـ٤ ص٦٠٦ ـ ٦١١.

* * *

نماذج حداثية للقطيعة مع الموروث

وإذا كانت هذه الأصول الفكرية العشرة، هى نماذج للتجديد، الذى يستصحب الثوابت الإسلامية، ويطور فى المتغيرات.. فهل فى واقعنا الفكرى المعاصر نماذج لحداثة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام وأصوله وقواعده؟؟..

إن الإجابة - الصريحة - هى نعم - مع الأسف الشديد! فلقد نجح التغريب والاستلاب الحضارى فى جعل المرجعية الوضعية تزاحم المرجعية الإسلامية فى فضائنا الفكرى.. وانطلق نفر من المتغربين، الذين ضُربت عقولهم وصيغت رؤاهم وفلسفاتهم وفق المناهج الوضعية الغربية، من هذه المرجعية الوافدة، فبشروا بالمقولات والرؤى الحداثية - التى قلدوا فيها «سلفهم الغربى» من فلاسفة التنوير الغربى - متحدّين ثوابت الأمة، وخارجين على نسقها الإيمانى، بإقامة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام.

وحتى لا ندع مجالاً «للاستنتاج»، أو «التأويل» أو «الادعاءات»، ونحن نقدم نماذج لهذه الحداثة «الغربية».. فإننا سنقدم نصوص أصحابها، كما كتبوها ونشروها، تاركين الحكم عليها وعلى موقفها من ثوابت الإسلام للفطرة السليمة التى تقرأ وتتأمل هذه النصوص.. ولنتيح - أيضًا - فرصة النظرة المقارنة بين نصوص حداثة القطيعة مع الموروث هذه، وبين نصوص التجديد الإسلامى، التى سبق وأوردناها لرواد مدرسة الإحياء والتجديد.

● إن الحداثة الغربية - التى هى ثقافة التنوير الغربى الوضعى - هى التى أعلنت وتعلن - بصريح العبارة - أنها قد أقامت وتقيم قطيعة معرفية كبرى مع الدين، وأنها حتى إذا استخدمت مصطلحات القاموس الدينى، فإنها تجرد هذه المصطلحات وتفرغها من مضامينها الدينية والإيمانية.. أى أنها، حتى عندما تستخدم لغة

الدين، فإنها تفرغ هذا الدين من الدين، وذلك بتأويل الدين لأنسنته، وتحويله إلى نسق فكرى إنسانى، لا علاقة له بالغيب والسماء!!. تعلن الحداثة الغربية ذلك، فتقول - بلسان أهلها والمدافعين عنها -:

«إنه بعد أن كان المسيحى حريصًا على طاعة الله وكتابه، لم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله.. فأيديولوچية التنوير قد أقامت القطيعة الإبستمولوچية [المعرفية] الكبرى، التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكوينى [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فمنذ الآن فصاعدًا راح الأمل بمملكة الله ينزاح؛ لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته.. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. لقد أصبح الإنسان وحده مقياسًا للإنسان.. وأصبح حكم الله خاضعًا لحكم الوعى البشرى، الذى يطلق الحكم الأخير باسم الحرية.. ويمكن للمعجم اللاهوتى القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يوهم أحدًا، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى!»[1].

● وعلى هذا الدرب - درب القطيعة المعرفية الكبرى مع ثوابت الإسلام وأصوله - سار نفر من الحداثيين العرب - حذو النعل بالنعل - فرأينا أحدهم يذهب على درب تأويل الإسلام تأويلاً يفرغ الدين من الدين، فيقول - عن الذات الإلهية - التى أجمع المسلمون على تنزيهها، فى الذات والصفات والأفعال، عن مماثلة أو مشابهة المحدثات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].. ويقول عن «التوحيد» و«الوحى» و«النبوة والرسالة» و«الإيمان» و«الغيب» و«التراث» وغيرها من مفاهيم ثوابت الدين ومصطلحاته:

إنه - أى الله - «هو الأرض.. والخبز.. والحرية.. والعدل.. والعتاد.. والعُدَّة.. وصرخات الألم.. وصيحات الفرح.. فهو تعبير أدبى أكثر منه وصفًا لواقع، وتعبير إنشائى أكثر منه وصفا خبريًا.. ولذلك، وجب التخلى عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة - فى علم أصول الدين - من مثل: «الله» و«الرسول» و«الدين» و«الجنة» و«النار» و«الثواب» و«العقاب»؛ لأن هذه الألفاظ والمصطلحات قطعية؛ ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة.. ولأنها تشير إلى مقولات غير إنسانية.. فما الله إلا وعى الإنسان بذاته.. وما صفاته وأسماؤه إلا آمال الإنسان وغاياته التى يصبو إليها.. وكل

صفات الله ـ العلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة ـ كلها صفات الإنسان الكامل. وكل أسماء الله الحسنى تعنى آمال الإنسان وغاياته التى يصبو إليها.. فالحقيقة هى الإنسان، والواقع الذى يعيش فيه.. ولذلك، فتعبير: الإنسان الكامل، أكثر تعبيراً من لفظ الله..

والتوحيد ليس توحيد الذات الإلهية، كما هو الحال فى علم الكلام الموروث، وإنما هو وحدة البشرية، ووحدة التاريخ، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنسان، ووحدة الجماعة، ووحدة الأسرة.. فالمهم هو إيجاد الدلالة المعاصرة للموضوع القديم، وتخليصه من شوائبه اللاهوتية.

فليس للعقائد صدق داخلى.. ولا يوجد دين فى ذاته.. والوحى هو البناء المثالى للعالم.. والمطلوب هو تحويل الوحى إلى أيديولوچية وإلى علم إنسانى.

والعلمانية هى أساس الوحى، فالوحى علمانى فى جوهره، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ، تظهر فى لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور.

والتراث قضية وطنية لا دينية، ومادة التراث نسقطها كلها من الحساب، ونستبدل بها مادة أخرى جديدة من واقعنا المعاصر.

والإلحاد هو التجديد، والتحول من القول إلى العمل، ومن النظر إلى السلوك، ومن الفكر إلى الواقع إنه وعى بالحاضر.. ودرء للأخطار.. بل هو المعنى الأصلى للإيمان.. والمطلوب هو الانتقال من العقل إلى الطبيعة، ومن الروح إلى المادة، ومن الله إلى العالم، ومن النفس إلى البدن، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك.. ومن العقيدة إلى الثورة»[٢]!!

هكذا بلغ «التأويل ـ العبثى» الذروة ـ إن لم يكن قد تجاوزها! فكل ثوابت الإسلام، وجميع عقائده، ومضامين مصطلحاته ـ من الله.. إلى الرسول.. إلى الدين.. إلى الجنة.. إلى النار.. إلى الثواب والعقاب ـ قد جردت من محتواها الدينى ـ «**فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى**» كما قال الحداثيون الغربيون! وانقلبت مصطلحات الدين وعقائده الثوابت إلى هذا العبث الحداثى اللا معقول!.

* * *

● ونموذج ثان، لحداثى آخر، من الذين اتخذوا الدراسات الإسلامية ميدانًا لهذا التأويل العبثى.. يقول - عن القرآن الكريم - الذى يؤمن المؤمنون - كل المؤمنين - أنه وحى سماوى، وتنزيل إلهى معجز وخالد.. يقول هذا الحداثى - عن القرآن -: إنه نص بشرى، ومُنْتَج ثقافى.. لا قداسة له! وأن بينه وبين الشعر الجاهلى - وخاصة شعر الصعاليك - شبهًا كبيرًا! وبنص عباراته - التى لا تحتاج إلى تعليق - يقول:

«من الواقع تكوّن النص [القرآن]، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، فالواقع هو الذى أنتج النص.. الواقع أولاً، والواقع ثانيًا، والواقع أخيرًا.

لقد تشكل القرآن من خلال ثقافة شفاهية.. وهذه الثقافة هى الفاعل، والنص منفعل ومفعول.. فالنص القرآنى فى حقيقته وجوهره مُنْتَج ثقافى. والمقصود بذلك أنه تشكل فى الواقع والثقافة فترة تزيد على العشرين عامًا.. فهو ديالكتيك صاعد وليس ديالكتيكا هابطًا.. والإيمان بوجود ميتا فيزيقى سابق للنص يطمس هذه الحقيقة.. والفكر الرجعى فى تيار الثقافة العربية هو الذى يحوّل النص من نص لغوى إلى شىء له قداسته..

والنص القرآنى منظومة من مجموعة من النصوص، وهو يتشابه فى تركيبته تلك مع النص الشعرى، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلاً، والفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل فى المدى الزمنى الذى استغرقه تكوّن النص القرآنى.. فهناك عناصر تشابه بين النص القرآنى ونصوص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعرى بصفة خاصة.. وسياق مخاطبة النساء فى القرآن، المغاير لسياق مخاطبة الرجال، هو انحياز منه لنصوص الصعاليك»!

هذا عن القرآن.. أما عن «النبوة والرسالة» و«الوحى».. فإنها - عند هذا الحداثى الماركسى -: ظواهر إنسانية، وثمرة «القوة المخيلة» الإنسانية، وليس فيها إعجاز ولا مفارقة للواقع وقوانينه.. فالأنبياء، مثل الشعراء والمتصوفة، مع فارق فى درجة «المخيلة»، فقط لا غير.. وبنص عباراته:

«إن الأنبياء والشعراء والعارفين قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية «المخيلة» فى اليقظة والنوم على السواء.. ومن حيث قدرة «المخيلة» وفاعليتها،

فالنبى يأتى على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفى العارف، ثم يأتى الشاعر فى نهاية الترتيب.

وتفسير النبوة اعتماداً على مفهوم «الخيال» معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية، التى تكون فى «الأنبياء» أقوى منها عند سواهم من البشر.. إنها حالة من حالات الفاعلية الخلاقة، فالنبوة، فى ظل هذا التصور، لا تكون ظاهرة مفارقة.. وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحى لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع، أو تمثل وثبًا عليه وتجاوزاً لقوانينه، بل كانت جزءاً من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها»![3].

وبعد تحويل القرآن إلى نص بشرى.. والوحى والنبوة إلى قوة فى «المخيلة» الإنسانية.. يذهب هذا الحداثى الماركسى إلى تطبيق «التاريخية والتاريخانية» على معانٍ ومضامين وأحكام القرآن ـ كل معانيه ومضامينه وأحكامه ـ من العقائد إلى الأحكام وحتى القيم والأخلاق والقصص ـ الأمر الذى يعنى نسخ كل مضامين القرآن وتجاوزها.. فيقول:

«.. فالقرآن خطاب تاريخى، لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا.. وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة فى النصوص... فالقرآن قد تحوّل من لحظة نزوله من كونه [نصًا إلهيًا] وصار فهمًا [نصًا إنسانيًا]. لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل.

وهذه التاريخية تنطبق على النصوص التشريعية، وعلى نصوص العقائد والقصص.. وهى تحرك دلالة النصوص وتنقلها فى الغالب من الحقيقة إلى المجاز..»[4]!!.

هكذا، تم العبث الحداثى بالثوابت والمقدسات ـ القرآن.. والنبوة والرسالة.. والوحى ـ على هذا النحو اللا معقول!».

* * *

● ونموذج ثالث، لشاعر حداثى ـ يسمونه «الشاعر الكبير» ـ بدأ عروبيًا، وانتهى فرنكفونيًا، فى بلد ليس لها تاريخ فى الفرنكفونية! أى أنه فرنكفونى بالهواية والهوى! ولقد احترف ـ فى كتاباته الصحفية.. التى غلبت شعره ـ الدعوة إلى:

- تعبير الأنثى بالجسد.. أى جعل الجسد الأنثوى العارى «الموديل» هو الملهم للرسامين والنحاتين والمصورين والأدباء.. ففصاحة الجسد الأنثوى العارى ـ عنده ـ لا تعادلها فصاحة أخرى! وهو يسحب هذه الدعوة حتى على جسد آدم وحواء، عليهما السلام!.

- والدعوة إلى احتقار العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ وذلك عندما يدافع عن وصف لويس عوض لهذه اللغة الوطنية والقومية بأنها: «لغة ميتة.. ودخيلة»!!.

- والدعوة إلى الاحتفاء والاحتفال بالإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ق م] بتزيين ميادينا بتماثيله ـ وهو الذى افتتح مرحلة غزو الغرب للشرق، والقهر الحضارى لثقافات الشرق ولغاته ودياناته، عشرة قرون، لم تنقشع ظلماتها إلا بالفتوحات التحريرية التى قادها الإسلام والمسلمون.

- والمشاركة فى الاحتفال ـ عامين كاملين ـ بالاحتلال، بدلاً من الاستقلال ـ الاحتفال بمرور قرنين على غزوة بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] لمصر [١٢١٣ ـ ١٢١٦هـ ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م] وإحراقه مئات القرى المصرية، وإبادته لسُبْع تعداد الشعب المصرى، وتحويله الأزهر الشريف إلى إصطبل للخيول! مزق الفرنسيون فيه القرآن الكريم، وتراث العلوم الإسلامية.. بل وبالوا وتغوطوا فيه!

- والتحدى لمشاعر الأمة، الوطنية والقومية والإسلامية والإنسانية، عندما غضبت كل الأمة من الوحشية الصهيونية التى استخدمت كل أسلحة الدمار الثقيلة، والمحرمة دوليًا، ضد أطفال وشباب ونساء وشيوخ انتفاضة الأقصى المبارك والقدس الشريف والاستقلال الفلسطينى ـ التى تفجرت فى ٢٨ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م ـ فكتب هذا الشاعر الحداثى داعيًا إلى حب الجنود الصهاينة الذين أطلقوا الرصاص على الطفل الفلسطينى الأعزل ـ محمد الدرة ـ لمدة خمس وأربعين دقيقة!!.

فالكراهية ـ فى عرف هذا الشاعر الحداثى ـ يجب أن تقف عند «القتل» ولا تتعداه إلى القاتل»[٥]!!..

ولست أدرى ـ ولا المنجم يدرى ـ هل يمكن كراهة الزنا، مع حب الزناة؟! وكراهة السرقة، مع حب اللصوص؟! وكراهة «الشيطنة» مع حب الشياطين؟!..

وهل يمكن أن نقيم العدالة والقصاص على الجريمة، مع الحب وإطلاق السراح للمجرمين؟!.

- ولقد توّج هذا الشاعر الحداثى مسلسل القطيعة مع ثوابت الأمة، عندما سُئل عن رأيه فيما:

«لو اصطدم المبدع الشاعر بما هو مقدس؟».

فإذا به - بعد أن أعلن «تقديسه لقيمة العقل وقيمة الحرية» يعلن رفضه لوجود «المقدس الدينى» من الأصل والأساس!.. فهذا الذى يسمونه «مقدسًا دينيًا»، ليس أكثر من اختراع تخترعه نحن، وادعاء ندعيه.. ونص عبارته - فى الإجابة على هذا السؤال - يقول:

«إن المقدس ليس كائنا خارج الشعر، أو خارج الإنسان.. المقدس هو مقدس لأننا نقدسه.. والشاعر يفترض أنه قد غلبته النشوة، أو روح السخرية، أو الجحود، كل هذه المشاعر وكل هذه الحالات تصادف الإنسان، وتصادف الشاعر، ماذا يصنع فى هذه الحالة؟ نحن نتوقع دائمًا من الشاعر أن يكتب بلغة تؤدى ما يريد أن يؤديه، لكن تظل محافظة على ما يجب لها من جمال»[٦]!.

فالمقدس - بإطلاق - عند هذا الشاعر الحداثى الفرنكفونى - هو «العقل» و«الحرية».. أما المقدس الدينى فهو اختراع يخترعه من يؤمن به، ولا وجود له فى الواقع والحقيقة.. والسخرية من هذا المقدس الدينى، والجحود له، فى لحظات «النشوة» و«الإبداع» أمر مطلوب، طالما كانت العبارة التى نعبر بها عن هذه السخرية وهذا الجحود، جميلة.. فقط لا غير!!.

هكذا تعاملت وتتعامل حداثة القطيعة المعرفية مع الموروث، مع المقدس الدينى، وثوابت القيم، وما أجمعت واجتمعت عليه الفطر السليمة من مشاعر وحقائق تتعلق بالتراث وبالتاريخ!.

* * *

● أما النموذج الرابع لحداثة القطيعة مع قيم الأمة ومعايير الحلال والحرام التى جاء بها دينها، وتجسدت عادات وأعرافًا فى حياتها.. فهو «فنان كبير»، احترف

رسم الجسد العارى للنساء. . وللنساء المعدمات، اللاتى يكتسبن من حرفة «الموديل»، واللاتى يخجلن من هذه الحرفة، فيكتمن ممارستهن لها حتى عن زميلاتهن فيها. . لأنها - حتى فى عرفهن - «نخاسة حداثية»، يبعن فيها الحشمة والكرامة والكبرياء والخصوصية لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء!

وفى حديث صحفى مع هذا «الفنان الكبير» نشرته مجلة أدبية شهيرة - كجزء من كتاب تحت الطبع - يصدر عن هذا «الفنان»، تحدث عن واحدة من النساء «الموديل». . تلك التى رسم لجسدها العارى ثلاثمائة لوحة، وهى ترقص - بعد أن «سطلها» بالحشيش، وأسكرها بزجاجة «البولانكى» الرخيص!. . يتحدث هذا «الفنان» الكبير عن «تجربته الفنية» مع الجسد الأنثوى العارى، فيقول - عن «صفية»، التى «جُنّ بجسدها العارى، حين شاهده، إلى حد تخصيص معرض كامل لها هو معرض [الراقصة] أوائل الثمانينيات.. وكيف أحضر لها «قرش الحشيش» وزجاجة «البولانكى» الرخيص، لتسكر حتى الصباح بينما يدير اسطوانة [يا مسهّرنى] لسيد مكاوى، لترقص على إيقاعها طول الليل»!.

ثم يستطرد فى الحديث عن «تجربته الفنية» هذه، فيقول:

«كانت جميلة، أطرافها طويلة، وجسمها طويل. لقد أضافت إلى خطوطى الكثير.. منحتنى معرض [الراقصة]، ومنحتنى القدرة على رسم «الإسكتش» السريع [٣٠٠ سكتش] كنت أرسم بسرعة جنونية على أوراق «الكلك» حتى ألاحق حركة جسدها مع إيقاع الموسيقى.. ومنحتنى حساسية خاصة فى التعامل مع الإيقاع، ومنحتنى أيضًا صدقًا وإخلاصًا نادرًا.. وأظن أن هذا التجاوب شرط مهم لمستوى اللوحة، وحتى لا أضطر إلى المزيد من الإغراءات من فلوس وتودد وغواية»!!.

وحتى لا يظن أحد أن هذا «الفنان الكبير» قد صنع ويصنع ذلك من باب «الضرورات التى تبيح المحظورات» - مع التنبيه على أننا لسنا هنا بإزاء «ضرورة». . ولا «حاجة» بل ولا حتى أمرًا من «التحسينات» - إذ الكارثة أن هذا الفنان الحداثى الكبير يمارس هذه «النخاسة الفنية» باعتبارها الأمر الطبيعى. . ويتحدث عن حقبة

السبعينيات ـ من القرن العشرين ـ تلك التى ضغطت فيها موجة التدين والصحوة الإسلامية على كليات الفنون الجميلة حتى ألغت نظام «الموديل العارى» فى تلك الكليات. يتحدث عن هذه الحقبة باعتبارها (**الزمن الأهبل**)! لأن الجسد الأنثوى العارى ـ بنظر هذه الحداثة ـ ليس فقط كلاً مباحًا ومستباحًا، وإنما هو ـ كما يقول ـ أقدم معبود عبده الإنسان.. وأطول المعبودات التى عبدها هذا الإنسان فى العمر والتاريخ!.

نعم، يعلن هذا «الفنان» عن هذه «العقائد الحداثية» لهذا «الدين الحداثى» فيقول:

«لقد خلقنا الله فى أحسن تكوين، ولهذا تكون النسب الصحيحة عارية بالضرورة.. بل ولا تكون صحيحة إلا عارية، ولا يمكن أن يتم تجريد سليم دون عرى.

تلك حقيقة أساسية فى الفن، لكن الشرط الاجتماعى القائم لا يسمح بعرض اللوحات العارية (زمن أهبل)!.. إن جسد المرأة هو أقدم عبادة عرفها الإنسان، وأعظم ديانة منذ عرفت الأديان. إن «أفروديت»[٧] الطالعة من زبد البحر، عبدت ٢٠ ألف سنة، أكثر من كل الديانات السماوية..»!![٨]

وهكذا.. فلا اعتبار لما تقرره الأديان ـ كل الأديان ـ من أن البشرية ـ التى بدأت بآدم، عليه السلام ـ قد بدأت ـ قبل الانحرافات الوثنية ـ بعبادة الله، سبحانه وتعالى.. لأن «الحداثة» ـ التى أصبحت «دينا» للحداثيين ـ قد جعلت الجسد الأنثوى العارى أقدم المعبودات، لأقدم الديانات.. وأطول الديانات عمرًا فى التاريخ!.

تلك نماذج ـ مجرد نماذج ـ للأفكار والآداب والفنون الحداثية، التى أقامت قطيعة معرفية كبرى مع موروث الأمة.. ومع موروثها الدينى ـ عقيدة وشريعة وقيما ـ على وجه الخصوص.

* * *

• الهوامش

(١) إميل بولا: [الحرية، العلمنة: حرب شطرى فرنسا ومبدأ العدالة] منشورات سيرف. باريس سنة ١٩٨٧م ـ نقلا عن: هاشم صالح ـ مجلة [الوحدة] ـ الرباط ـ المغرب ـ عدد: فبراير ـ مارس سنة ١٩٩٢م ص٢٠، ٢١.

(٢) د. حسن حنفى [التراث والتجديد] ص١٢٨، ١٣٠، ١٢٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤ ـ ١٤٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٥، ١٧٦، ١٧٧، ٦٦، ٢٢، ١١٤، ٢٠٣، ٢٠٨، ٦٩، ٢١، ١٧٣، ٦٧، ٦١. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.

(٣) د. نصر حامد أبو زيد [مفهوم النص] ص٥٦، ٣٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

(٤) د. نصر حامد أبو زيد [نقد الخطاب الدينى] ص٨٣، ٩٤، ٨٢ ـ ٨٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

(٥) أحمد عبد المعطى حجازى: «سوف أكون صريحًا مع الجميع» [الأهرام] ص٢٨ فى ١١ ـ ١٠ ـ سنة ٢٠٠٠م.

(٦) أحمد عبد المعطى حجازى ـ من حوار معه «أخبار الكُتّاب» العدد ٣٧ ـ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م ـ اتحاد كتاب مصر ـ القاهرة.

(٧) أفروديت، هى إلهة الجمال والحب فى الأساطير الوثنية الإغريقية.. ولقد كذب هذا «الفنان» عندما عمم عبادة أفروديت على الإنسانية، زاعمًا أن ذلك قد استمر عشرين ألف سنة.. وكأن تاريخ الإنسانية هو هذه «اللحظة الأسطورية الإغريقية» وحدها!.

(٨) من حديث أجرته عبلة الرويني، مع الفنان «حسن سليمان» ـ مجلة «أخبار الأدب» ـ القاهرة ـ العدد ٣٦٦ فى ١٦ ـ ٧ ـ سنة ٢٠٠٠م.

❊ ❊ ❊

رفض التجديد الإسلامى للحداثة الغربية

بقى أن ننبه، فى ختام هذه الدراسة، على وعى المجددين الإسلاميين - منذ فجر الاحتكاك الحضارى بين أمتنا الإسلامية والحضارة الغربية - وعيهم بالطبيعة «الدهرية - اللادينية» لهذه الثقافة الحداثية، وبالقطيعة المعرفية التى تقيمها هذه الحداثة مع الموروث الدينى.. وتصدى هؤلاء المجددين لهذه الثقافة الحداثية اللادينية، منذ بواكير تسللها إلى بلادنا، أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، فى ركاب الغزوة الأوروبية لوطن العروبة وعالم الإسلام.

● لقد رأى الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] هذه الحداثة، التى وفدت مع الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣ - ١٢١٦هـ ١٧٩٨ - ١٨٠١م].. رآها «دهرية» لا علاقة لها بأى دين من الأديان، وذلك عندما سخر من دعوى «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] وحملته الفرنسية اعتناقهم دين الإسلام، فقال الجبرتى:

«إن إسلامهم نَصْب.. فلقد خالفوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، وهم دهرية معطِّلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون»![1].

فلم يكشف زيف دعواهم اعتناق الإسلام، بالقول إنهم لا يزالون على نصرانيتهم، وإنما نفذت بصيرته إلى الطبيعة اللادينية والدهرية للفلسفة الوضعية التى تأسست عليها الحداثة التى جاءوا بها، والتى اعتمدتها الثورة الفرنسية بديلاً للدين واللاهوت.

● وكذلك فعل رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] الذى خبَر ثقافة الحداثة الأوروبية بباريس.. فرآها دنيوية طبيعية لا دينية، يعيشها أهل

باريس، الذين ـ كما قال ـ: «ليس لهم من دين النصرانية إلا الاسم فقط.. فهم إباحيون، يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك لا يصدقون بشىء مما فى كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وإن كانت بلادهم من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.. علوم التمدن المدنى».

ولتمييز الطهطاوى بين براعة الفرنساويين فى العلوم الكونية ـ علوم المادة.. والتمدن المدنى ـ وبين ضلال الفلسفة الوضعية عن السبيل الإيمانية.. لخص هذه المعادلة فى بيتين من الشعر، قال فيهما:

أيوجدُ مثلُ باريسَ ديار ... شموسُ العلمِ فِيهَا لا تغيب
ولَيلُ الكُفرِ ليسَ لهُ صباح ... أمَا هذَا وحقِّكُمُ عَجِيب![2]

● وكذلك فعل جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] الذى رأى هذه الفلسفة الوضعية اللادينية، ـ التى مهدت للثورة الفرنسية، بفلسفة الأنوار وموسوعتها، والتى اعتمدتها الثورة الفرنسية «دينًا طبيعيًا» أحلته محل «الدين الإلهى» ـ رآها الأفغانى مذهبًا للذة الحسية، يبعث من جديد مذهب «أبيقور» الكلبى [٣٤١ ـ ٢٧٠ق م] مذهب اللذة والدهرية ـ على أيدى فلاسفة التنوير الوضعى اللادينى، من أمثال «ڤولتير» [١٧٣٤ ـ ١٧٧٨م] و«روسو» [١٧١٢ ـ ١٧٧٨م] اللَّذين ـ كما يقول الأفغانى ـ: «يزعمان حماية العدل، ومغالبة الظلم، والقيام بإنارة الأفكار، وهداية العقول، فنبشا قبر أبيقور الكلبى، وأحييا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف دينى، وغرسا بذور الإباحية والاشتراك، وزعما أن الآداب الإلهية جَعْليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى.. وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع كلٌ عقيرته بالتشنيع على الأنبياء [برأهم الله مما قالا] وكثيراً ما ألف «وولتير» من الكتب فى تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقدح فى أنسابهم وعيب ما جاءوا به، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين، ونالت من عقولهم، فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم.. وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة [فى زعمهم]، شريعة الطبيعة..»[3].

هكذا كشف الفيلسوف جمال الدين الأفغانى أضاليل الفلسفة الوضعية الأوروبية، والتنوير العلمانى اللادينى، والآثار المدمرة لهذه الدهرية الحيوانية، التى وقفت بالإنسان عند الطبيعة والمادة، فعزلته عن الروح الإلهية، والنعمة الربانية، والرعاية السماوية.. كشف الأفغانى الأساس الفلسفى لثقافة الحداثة هذا الكشف العبقرى والعميق والشجاع ـ فى عصر كانت الدنيا تتعبد فى محاريب الثورة الفرنسية وفلسفتها وثقافتها! وبهذا الإيجاز الفلسفى البليغ.

● وعندما قامت فى بلادنا ـ بواسطة المثقفين الموارنة، الذين صيغت عقولهم وثقافتهم فى مدارس الإرساليات الفرنسية ـ مؤسسات ثقافية وصحف ومجلات احترفت التبشير بثقافة الحداثة الغربية ـ وفى مقدمتها مجلة [المقتطف] [١٢٩٣ ـ ١٣٧١هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢م] التى أخذت تسرب هذه الحداثة اللادينية تحت لافتات «العلم» و«النظريات العلمية»، كشف المجدد المجتهد «عبد الله النديم» [١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م] الطابع الإلحادى لهذه الثقافة الحداثية، وتحدث عن هذا الفريق من كتاب [المقتطف]، واصفًا إياهم بأنهم: «**أعداء الله وأنبيائه.. والأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الخالق.. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هى إلا معاول يهدمون بها الأديان..**»[٤].

● ولقد ظل هذا الموقف الواعى بمادية ودهرية ولا دينية ثقافة الحداثة الغربية، مميزًا لعلماء الأمة ومفكريها، منذ عصر الجبرتى.. وحتى يومنا هذا.. فوجدنا الدكتور محمد خاتمى يرصد الخصيصة المميزة لثقافة الحداثة الغربية عن ثقافتنا الإسلامية، وعن ثقافة أوروبا ما قبل التنوير الأوروبى، فيرى أن هذه الخصيصة هى، أولاً وقبل كل شىء، ذلك الانقلاب الذى جعل ثقافة الحداثة تتمحور حول «الإنسان»، بعد أن كانت الثقافة تتمحور حول «الله».. فلقد غدا الإنسان الطبيعى، المبتوت الصلة بالله والدين والسماء، هو محور الحداثة الأوروبية وثقافتها.. «**فالحداثة لفظ يراد به التحولات التى جرت فى الغرب فى العصر الأخير من تاريخ الإنسان، وبالتالى يمكن القول، بتعبير أدق، إن الحداثة هى الثقافة**

التى تتمحور حول الإنسان، فى مقابل ثقافتنا التى تتمحور حول الله.. فالحداثة هى روح الحضارة الغربية، المنسجمة معها، والمختلفة والمتباينة مع ثقافتنا الإسلامية، ومع ثقافة الغرب القروسطية.

لقد كانت ثقافة العالم الإسلامى وثقافة الغرب القروسطية، على نحو ما، نوعى جنس واحد، إن لم نقل إنهما صنفان لنوع واحد، وكان أبرز وجوه الشبه بينهما هو محورية الله فى فكر الإنسان واعتقاده وفى نظامه الفكرى والأخلاقى والعاطفى.. ولقد حارب الغرب ثقافته القروسطية هذه، وكان من نتيجة حربه عليها ظهور حضارته الحديثة وثقافته الحديثة، التى تبوأ الإنسان سدة المحورية فيها.. فكان ذلك التحول - من محورية الله إلى محورية الإنسان - أبرز وجوه الاختلاف بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين ثقافة الغرب وحضارته الحديثة..»[٥].

● وإذا كنا قد سبق وأوردنا الاعتراف الصريح لأنصار الحداثة ودعاتها، بأن مقصدها وغايتها ومعناها هو إحلال «نظام الطبيعة بدلاً من نظام النعمة الإلهية» وإحلال «هيمنة العقل بدلاً من مملكة الله» وجعل «الإنسان وحده المقياس للإنسان».. فلقد كان شجاعًا - والشجاعة تحمد حتى من الخصوم الفكريين! - ذلك الحداثى - الذى يتجاوز الآن «الحداثة» إلى عبثية وتفكيك وعدمية ولا أدرية «ما بعد الحداثة» - عندما استخدم منهاج «شنّعت فوضحت!»، فى وصفه الموجز لهذه الحداثة فقال:

«إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون..»[٦]!!.

نعم!.. هكذا تحدث الحداثيون عن الذات الإلهية.. تعالى الله عن ما به يتحدثون!..

***

تلك هى «الحداثة الغربية».. وهذا هو «التجديد الإسلامى».. وتلك نماذج من مقولات المجددين من علماء الإسلام.. ومن مقولات الحداثيين، الذين «امتهنوا» الإسلاميات منهم.. والذين «امتهنوا» الآداب والفنون.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

[الأنفال: ٣٦، ٣٧]

و ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

***

• الهوامش

(١) [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] ص٣٤ تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(٢) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] جـ٢ ص١٥٩. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص١٦١، ١٦٢.

(٤) مجلة [الأستاذ] ـ القاهرة ـ العدد ٣٩. ص٩٢٣، ٩٢٤ في ٧ ذي القعدة سنة ١٣١٠هـ مايو سنة ١٨٩٣م.

(٥) د. محمد خاتمي [الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية] ص٤١ ـ ٤٩. طبعة القاهرة ـ نهضة مصر ـ سنة ١٩٩٩م.

(٦) د. علي حرب «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشباه أركون» صحيفة [الحياة] ـ لندن ـ في ١٨ ـ ١١ ـ سنة ١٩٩٦م.

***

المراجع

ابن القيم : [إعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

أحمد عبد المعطى حجازى: مقال: «سوف أكون صريحًا مع الجميع» - [الأهرام] فى ١١ - ١٠ - ٢٠٠٠م.

: حوار: نشرة [اتحاد الكتاب] - القاهرة - عدد ٣٧ - سبتمبر سنة ٢٠٠٠م.

الأفغانى (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

إميل بولا : [الحرية، العلمنة: حرب شطرى فرنسا ومبدأ العدالة] طبعة باريس - منشورات سيرف سنة ١٩٨٧م.

الجبرتى (عبد الرحمن) : [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

د. حسن حنفى : [التراث والتجديد] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.

حسن سليمان : حوار مع عبلة الروينى - مجلة [أخبار الأدب] - القاهرة - عدد ٣٦٦ فى ١٦ - ٧ - سنة ٢٠٠٠م.

الطهطاوى (رفاعة رافع) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

عبد الله النديم : مجلة [الأستاذ] - عدد ٣٩ - القاهرة فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣١٠ - مايو سنة ١٨٩٣م.

د. على حرب : مقال «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشبار أركون» صحيفة [الحياة] ـ لندن ـ فى ١٨ ـ ١١ ـ سنة ١٩٩٦م.

د. محمد خاتمى : [الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

محمد عبده (الأستاذ الإمام): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

المودودى (أبو الأعلى) : [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] طبعة بيروت ـ مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م.

د. نصر حامد أبو زيد : [مفهوم النص] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

: [نقد الخطاب الدينى] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

هاشم صالح : مجلة [الوحدة] ـ الرباط ـ عدد فبراير ـ مارس سنة ١٩٩٢م.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

رقم الإيداع ١٦٧١ /٢٠٠٣

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٢
الرقم البريدي : ١١٢٣١